﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾

[النور:51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّقابل بين فريقي الكفر والإيمان مؤثِّرٌ في القلوب

لمّا بيَّن الله تعالى ما عليه المنافقون وأضرابهم من ادِّعاء الإيمان والطّاعة كذبًا وزورًا، وهم يسلكون سبيل الإعراض والنفور، وأنَّهم إذا طُلبوا إلى حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ كان دأبهم الإعراض، وعدم الانصياع لهذا الحُكم، وبيَّن ما قرَّ في قلوبهم وأنفسهم من الكفر والفساد والارتياب وخوفِ الظُّلم في هذا الحكم؛ جاء الحديث هنا عن صفات المؤمنين التي هي أضداد صفات المنافقين، مِنَ الامتثال والخضوع لحكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ وتلك صفاتهم وطيب معدنهم حتَّى استحقّوا الفلاح والفوز، ومِن عادة القرآن - إذا ذكَر فريقَ الكفرِ - أن يذكرَ فريقَ الإيمانِ، والعكس صحيح.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَمِعْنَا﴾: (سمع) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ إيناسُ الشَّيْءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمعًا، والسَّمعُ: قوَّة في الأذن بها تُدرك الأصوات، وفعله يقال له: السَّمعُ أيضًا، والسِّمعُ: الذِّكْرُ الجَميلُ، يُقالُ: قَدْ ذَهَبَ سِمعُهُ في النّاسِ، أَيْ: صيتُهُ[1].

فالسَّمع هنا على حقيقته، وهو قوَّة في الأذن، بها تُدرك الأصوات، والقرينة قوله: ﴿وَأَطَعْنَاۚ﴾، أي: سمعنا الدُّعاء، وأطعنا بالإجابة.

2) ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: (فلح) أَصْلانِ صَحيحانِ، أَحَدُهُما يَدُلُّ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع)، والراغب، المفردات: (سمع).

شَقٌّ، والآخَرُ على فوْزٍ وبَقاءٍ، فالأَوَّلُ: فلَحْتُ الأَرْضَ: شَقَقْتُها، والعَرَبُ تَقولُ: (الحَديدُ بِالحَديدِ يُفْلَحُ)؛ ولِذَلِكَ سُمّيَ الأَكّارُ فلّاحًا، والأَصْلُ الثّاني الفَلاحُ: البَقاءُ والفَوْزُ، وقَوْلُ الرَّجُلِ لِامرَأَتِهِ: (اسْتَفْلِحي بِأَمرِكِ) مَعْناهُ: فوزي بِأَمرِكِ، والفَلاحُ: السَّحورُ، والفَلاحُ: الظَّفَرُ وإدراك بغية، وذلك ضربان: دنيويٌّ وأخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفر بالسَّعادات التي تطيب بها حياة الدُّنيا، وهو البقاء والغنى والعزُّ، وفَلاحٌ أخرويٌّ، وذلك أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنًى بلا فقر، وعزٌّ بلا ذلٍّ، وعلم بلا جهل[1].

وقولُه: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، أي: هم الفائزون بكلِّ مطلب، والناجون من كلِّ محذور[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التصديقُ والإذعان شأن المؤمن الحقِّ

إنَّما كان مِن شأن المؤمنين الصادقين في إيمانهم، والذين طابق ظاهرهم باطنَهم؛ إذا طُلِبوا إلى حكم اللّه تعالى وحكم رسوله ﷺ في خصومةٍ أو غيرِها؛ السَّمعُ والطاعةُ، فاستحقّوا - لاستجابتهم لهما وامتثالهم لأمرهما ونهيهما - أن يكونوا مِن الفائزين في الدُّنيا والآخرة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل الآية عمَّا قبلها:

القرآنُ يرغِّب المنافقين، ويثبِّت المؤمنين

جملة ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اسْتِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ لِأَنَّ الإِخْبارَ عَنِ الَّذين يعرضون عِنْدما يُدْعَوْنَ إِلَى الحُكومَةِ بِأَنَّهُم لَيْسوا بِالْمُؤْمِنينَ، في حين أَنَّهُم يُظْهِرونَ الإيمانَ؛ يُثيرُ سُؤالَ سائِلٍ عَنِ الفاصِلِ الَّذي يُمَيِّزُ بَيْنَ المُؤْمِنِ الحَقِّ، وبَيْنَ الَّذي يُرائي بِإيمانِهِ في حين يُدْعَى إِلَى الحُكومَةِ عِنْدَ رَسول اللّه ﷺ فيَقْتَضي أَنْ يُبَيّنَ لِلسّائِلِ الفَرْق

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلح)، والراغب، المفردات: (فلح).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 132.

بَيْنَ الحالَيْن؛ لِئَلّا يَلْتَبِسَ عِنْدَهُ الإيمانُ المُزَوَّرُ بالإيمانِ الصّادِقِ، فقَدْ كانَ المُنافِقونَ يُمَوِّهونَ بأَنَّ إعْراضَ مَنْ أَعْرَضَ مِنْهُم عَنِ التَّحاكُمِ عِنْدَ رَسولِ اللّه لَيْسَ لِتَزَلْزُلٍ في إيمانِهِ بِصِدْقِ الرَّسولِ، ولَكِنَّهُ إعْراضٌ لِمُراعاةِ أَعْراضٍ مِنَ العَلائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ، كَقَوْلِ بِشْرٍ: إنَّ الرَّسولَ يُبْغِضُني؛ فبَيَّنَ اللّه بُطْلانَ ذَلِكَ بِأَنَّ المُؤْمِنَ لا يَرْتابُ في عَدْلِ الرَّسولِ وعَدَمِ مُصانَعَتِهِ، وفي هذا الاستئناف ثناءٌ على المؤمنين الأحقَّاء، بضدِّ ما كان ذمًّا للمنافقين، وهذا مِن عادات القرآن في إرداف الذَّمِّ بالثناء وعكسه[1].

بلاغةُ القصرِ:

إنَّما يتحلَّى المؤمنون بالسَّمع والطاعة

ورد التَّعبير بأداة القصر: ﴿إِنَّمَا﴾، وهي تُستعمل في الأمر الذي لا ينكره المخاطَب، ولا يجهله، أو فيما يُنزَّل هذه المنزلة، أو في تنزيل الجاهل منزلةَ العالم بالشيء غير المنكر له، وفي أسلوب القصرِ دفعٌ أن يكون مخالف هذه الحالةِ المذكورةِ في الآية في شيءٍ من الإيمان، وإن قال بلسانه: إنَّه مؤمنٌ، وهذا القصرُ قصرُ موصوفٍ - وهو قولُهم - على صفة السَّمع والطّاعة، أي: ما قولُ المؤمنين في هذه الحالة إلّا سمعنا وأطعنا، وهذا مدح لإيمانِهم الثابت، وهو إضافيٌّ؛ لأنَّه بالنِّسبة إلى حال المنافقين الذين إذا دُعوا إلى حكم الرَّسول؛ عصوا أمره، وبمخالفة حالِ المؤمنين حالَ المنافقين نبصر التَّعريض في: ﴿إِنَّمَا﴾، أي: إنَّما كان قول المؤمنين في هذه الحالة سمعنا، وأطعنا، لا: سمعنا، وعصينا، وهو قصر إفراد؛ لملاحظته ادِّعاءَ اشتراك المنافقين والمؤمنين في الاستجابة للّه ورسوله، ومعلوم أنَّ أقوال المؤمنين حين يُدعون إلى رسول اللّه ﷺ ليحكم بينهم؛ غير منحصرة في قول: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ولا في مرادفِهِ، فلعلَّ منهم مَن يزيد على ذلك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 273.

سرُّ ذِكرِ ﴿كَانَ﴾، ودلالة صيغتها:

كان مِن الممكن أن يقال: (إنَّما قول المؤمنين ...)، ولكن جيء بكلمة الكون؛ لتشير إلى أنَّ قولهم هذا هو من ديدنِهم وشأنهم؛ إذا دُعوا إلى اللّه ورسوله، ولن يكون كذلك إلّا برسوخ الإيمان في القلب والنَّفس، وحقَّق ذلك كونُه ماضيًا، فهو أمرٌ محسومٌ مقطوع به في حقِّهم.

مَن ذاق حلاوةَ الإيمان؛ لم يكن منه لله ورسوله إلّا التَّسليمُ المطلقُ

بلاغةُ تقديم خبرِ ﴿كَانَ﴾:

ورد قوله تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ خبرًا لـ: ﴿كَانَ﴾، مقدَّمًا على اسمها الذي هو المصدر المنسبك مِن ﴿أَن﴾ والفعل: ﴿أَن يَقُولُواْ﴾، أي: قولُهم: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ﴾، وقُدِّم المسندُ على المسند إليه؛ مُتابَعَةً لِلاسْتِعْمالِ العَرَبيِّ؛ لأَنَّهم إذا جاؤوا بَعْدَ كانَ بِأَنْ والفِعْلِ؛ لَم يَجيئوا بِالخَبَرِ إلّا مُقَدَّمًا على الاسْمِ؛ نَظَرًا إلَى كَوْنِ المَصْدَرِ المُنْسَبِكِ مِنْ (أَنْ) والفِعْلِ أَعْرَفَ مِنَ المَصْدَرِ الصَّرِيحِ، ولَم يَجيئوا بِالخَبَرِ إلّا مُقَدَّمًا؛ كَراهِيَةَ تَوالي أَداتَيْنِ، وهُما: كانَ وأَنْ[1]، وفي تقديم الخبر لفتٌ قويٌّ إلى مغايرة قول المؤمنين لقول المنافقين، فيقوَى نفيُ التسوية الضمنيُّ بين الفريقين، ويتأكَّدُ.

قد يخفَى الفرقُ بينَ المنافقين والمؤمنين، والتَّقديمُ إمعانٌ في تجليته

معنى (أل)، وعلاقتُه بدلالة الاسميَّة في: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾:

قوله: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مُعرَّف بـ(أل)، والتعريف بها للعهد الذهنيِّ، أي: المؤمنين الذين يعهدهم المنافقون، ويعرفونهم، أو للجنس؛ لبيان مغايرة المنافقين لجنس المؤمنين في كل عَصْرٍ ومِصْر وجِنْس.

قانونُ إيمانِ الكُمَّل مطَّردٌ في كل عصر ومصر وجنس

والحمل على الجنس أَوْلَى مِن الحمل على الاستغراقِ الذي يُستحضَرُ به الأفرادُ فردًا فردًا؛ نظرًا إلى جريان الحديث عن المنافقين على جهة الجمعية، وجريان الحديث عن المؤمنين على جهة الجمعية أيضًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 275.

وقد تحمل على الاستغراق؛ نظرًا إلى الحمل على لفظ (مَن) بالإفراد في قوله تعالى في اللحاق المباشر: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ﴾.

أو أنَّ (أل) معناها الكمال، أي: المؤمنين الكاملين في إيمانهم بجمعهم بين الإيمان والاتِّباع والانقياد.

علَّةُ التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾:

مَـــن دخـــلَ قلبَهُ الإيمانُ؛ صـار مِـن أهـل الاسـتـجـابـة والإحسان

عبَّر التَّنزيل الكريم بـ﴿إِذَا﴾ الشرطية في قوله: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ﴾؛ لبيان تحقُّق معنى أنَّ المؤمنين دُعوا إلى الله ورسوله، وتحقَّق - تبعًا لذلك - استجابتهم لله ورسوله في قوله: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾، فذلك مِن دأبهم في أحوالهم مع الله ورسوله.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المبنيِّ للمفعول:

حـــبُّ الـلـه ورسوله جعلهم يستجيبون لكلِّ أحدٍ مِن قِبَلِهما

ورد الفعل: ﴿دُعُوٓاْ﴾ مبنيًّا للمفعول، بحذف فاعله، وإقامة المفعول مقامه للعموم، أي: سواء دعاهم الرَّسول ﷺ أو مَن يقوم مقامه ممَّن له الطَّاعة والتسليم؛ إذ الغرضُ الإعلام بوقوع الفعل بالمفعول دون النَّظر إلى الفاعل مَن هو؛ لأنَّ القصدَ مدحهم بالتسليم المطلق لحكم الله ورسوله مِن أيِّ داعٍ كان.

معنى ﴿إِلَى﴾:

لم يتوجَّهوا إلى الله ورسوله إلّا لمعرفتهم بهما

﴿إِلَى﴾ لانتهاء الغاية، والمراد دعوتهم إلى غاية مقصودة، وهي حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ وأنعِم بها من غاية يُنتَهى إليها! وهذا يعني: سعيهم في إرضائهما؛ لأنَّهما غايةُ الغايات عندهم.

سرُّ تعلُّقِ فعل الدُّعاء بالله ورسوله:

الكُمَّلُ يُبصرون أنَّ الألـوهـيـة الحقَّة حاضرة في كلِّ شيء

تعلَّق الفعل ﴿دُعُوٓاْ﴾ بكونه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مع أنَّه في الظاهر للرسول؛ لأنَّه الحَكَمُ المباشرُ بينهم وبين خصمهم، فاسم الجلالة: ﴿ٱللَّهِ﴾ مذكورٌ على خلاف الظاهر، وسرُّ ذلك: بيانُ

أنَّ المؤمنين يبصرون جلال الله وجماله في أمر رسول الله محمَّد ﷺ فلا يكون منهم إلّا تفخيمُه وتعظيمه وكمال الانقياد له رغبةً ورهبةً، وسلمًا وحربًا، وطوعًا وكرهًا، وعسرًا ويسرًا، وفي هذا كلُّ مدحٍ لهم، يتبعه كلُّ ذمٍّ لأضدادهم مِن المنافقين.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بلفظ الحُكْمِ:

عُبِّرَ في الآية بالحُكْمِ في قوله: ﴿لِيَحْكُمَ﴾؛ لأنَّها في الحديث عن الفريق المؤمن المقابل للفريق المنافق الذي إذا دخل في تخاصُم وتنازُع؛ دُعي إلى محكمَةِ رسول الله ﷺ فالسّياق الشامل لهم جميعًا هو سياق التحاكم إلى رسول الله، والرِّضا بحكمه، والانقياد له، وسياق الحكم في التخاصم والتنازع، ولا شكَّ أنَّ الحكم يكون قبل القضاء، فإذا لم يكن مِن المنافقين رضًا بحكمه؛ فكيف يرضون بقضائه؟ إنَّهم لا يرضون أوَّلًا بحكمِه، فيُعرضون عنه؛ إذا لم يكن الحقُّ لهم، فلو عبَّر القرآنُ بـ: (ليقضي)؛ لَما راعَى حالَ المنافقين، وهو يتحدَّث عن أضدادهم، مِن المؤمنين، مع أنَّ الأبلغ في مدح المؤمنين أن يقال: (ليقضي)؛ فيكون هذا التَّعبير منطويًا على رضاهم بحكمه من باب أولى، ولكنَّ سياق الآية - كما ذكرنا - يراعي حال المنافقين؛ لأنَّ الملحوظ - من سياق هذه الآية وما قبلها مِن الحديث عن المنافقين - نفيُ التسويةِ بينهم في أكثر من جهة، أعلاها وأمُّها جهةُ الإيمان بالله ورسوله.

المنافقون ملاحَظون في الحديث عن المؤمنين

دلالةُ الإفرادِ في: ﴿لِيَحْكُمَ﴾:

كان الظاهرُ - بناءً على قوله: ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ - أن يقال: (ليحكما بينهم)، ولكنَّ القرآن أفرد، فقال: ﴿لِيَحْكُمَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ حكم رسول الله ﷺ هو حكم الله تعالى فهو إنَّما يحكم بوحي من الله تعالى وهذا يعود على تعلُّق فعل الدُّعاء بالله ورسوله بالتَّحقيق والتَّوكيد.

من أطاع الرسول؛ فقد أطاع الله

معنى اللّامِ:

من وظائف الرَّسولِ الحكمُ بين الناس

اللامُ في قوله: ﴿لِيَحۡكُمَ﴾ لام التَّعليل والتي يُنصَبُ الفعل المضارع بعدها بأن مضمرة وجوبًا، ولام التعليل هي التي يصلح أن يوضعَ موضعها (لأجل)، والمعنى هنا: من أجل الحكم بينهم.

تخصيصُ التَّعبيرِ بفعلَي السَّمع والطّاعة:

مَن سمِع عن الله وجبت عليه الطّاعة، فهما قرينان

شُهِر التعبيرُ بهذَين اللَّفظين عن كمال الانقياد والتسليم والاستجابة، فهما كنايةٌ عن ذلك، حتَّى صار استعمالهما كالأمر المسَلَّم به في عرفهم، وجرى مجرى المثل في الاستعمال[1]، ففي قول المؤمنين: ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ ضَرْبٌ مِن الإيجاز، وفيه أيضًا مبالغةٌ في كمال التسليم والانقياد.

بلاغةُ العطفِ:

لا يستوي الظالمون والمفلحون حالًا ومآلًا

وقعت جملة: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ استئنافًا بيانيًّا؛ جوابًا عن السؤال عن حال المؤمنين بعد نفي الإيمان عن المنافقين، وبعد تمام بيان ذلك جاءت جملةٌ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ استئنافًا بيانيًّا آخرَ؛ جوابًا عن السؤال عن تحقيق حالهم، والحكم العام عليهم بما يشمل جزاءهم، كقوله تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فكان الظاهرُ غيابَ الواو؛ لشبه كمال الاتصال بين الجملة وما قبلها.

وفي ذكر الواو احتفالٌ بمضمون هذه الجملة؛ بما في الواو من معنى المغايرة الذي لا يبرحها، والذي يشعر باستقلال ما بعد الواو عمَّا قبلها نوعَ استقلالٍ، مع جليل اهتمام؛ لأنَّ هذه الجملة ترشح مِن الفلاح فيها على ما قبلها، مِن قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله: سمعنا وأطعنا، فذلك مِن الفلاح.

وفيه لفتٌ إلى تحقيق حالهم؛ ليقارن المُتلَقُّونَ بينه وبين حال المنافقين في قوله: ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 275.

وبالجملة: فالاحتفال بفلاحهم احتفالٌ بأقوالهم وأفعالهم، وإظهارٌ لفضلهم على أضدادهم مِن المنافقين، فيقوى بيانُ نفي التسوية بينهما، وذلك ما سيقت له الآيةُ أصلًا، وفي الاحتفال بفلاحهم إشعارٌ بأنَّهم كأنَّهم فازوا به، وذكرُ الواو قرينة قويَّة على إرادة نفي التسوية بين الفريقين؛ كأنَّ القرآن بعدما ذكر بعض أحوال المنافقين يُعدِّد شيئًا مِن أحوال المؤمنين.

دلالةُ الإشارةِ بالبعيد:

السَّمعُ والطاعة لـرسـول الـلـه سـبـبٌ عـظـيـم للفلاح

قولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين؛ باعتبار صدور القول المذكور عنهم، ومعنى البُعد فيه مُشعِرٌ بعلوِّ رتبتهم، وبُعْد منزلتهم في الفضل، والمعنى: أولئك المنعوتون بما ذُكِر مِن النَّعت الجميل[1]، وفيه أنَّهم جديرون بالاتِّصاف بالفلاح في الدارين - لإطلاقه عن التقييد - بسبب ما حدَّث عنهم قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

دلالةُ ذكر ﴿هُمُ﴾، وعلاقته بتعريف الطرفين:

في التَّوكيد مدحٌ للمفلحين، وذمٌّ للمنافقين

ضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾: من أدوات التَّوكيد، وهو يفيد الاختصاص، وأنَّ ما بعده خبرٌ لا صفة، والخبر أقوى في الدِّلالة وفي تثبيت الحكم من الصِّفة؛ إذ الخبر عمدةٌ في الكلام، وسُمّي ضمير الفصل ضميرًا تجوُّزًا؛ لمجيئه على صورة الضَّمير، وعُبِّر بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾؛ لتحقيق إثبات فلاحهم وتوكيدِه، ويجوز أن يكون طريقًا دالًّا على القصر، وإن حُمِل على مطلق التوكيد، فالدالُّ على القصر هو تعريف الطرفين: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فالأوَّلُ معرَّف بالإشارة للبعيد، والثاني معرَّف بـ(أل).

نكتةُ مشاكلة: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لتركيب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

يُلاحَظ أنَّ تركيبَ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ في وصف المؤمنين

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 132.

بالفلاح، جرى على حذوِ التركيب الذي قيل في وصف المنافقين بالظُّلم، بصيغة القصر المؤكَّد بـ﴿هُمُ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ وهذا أوَّلًا تحريكٌ للمتلقّين لأن يقارنوا بين الفريقين، وثانيًا: إبلاغٌ في نفي التسوية بينهما، وثالثًا: أن يكون الثَّناءُ على المؤمنين ضدًّا لمذمَّة المنافقين تمامًا، كما قال ابن عاشور[1].

التشابهُ في الإبانة عنهم صورةٌ لكمال التَّغاير بينهم

علَّةُ التعبير بـ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ ودلالة (أل) فيه:

عُبِّر بالفلاح، ونُظِم اسمَ فاعلٍ في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ مِن بعد ذِكر قول المؤمنين؛ إذا دعوا إلى الله ورسوله: سمعنا وأطعنا؛ إشارةً إلى أنَّ المؤمنين شقّوا طريقًا مِن طُرُقِ الفلاح؛ لأنَّ الفلاح يدلُّ في أصلٍ مِن أصلَيْه على شَقٍّ، فهذا الطريقُ الذي شقَّهُ المؤمنون سديدٌ سدادًا تامًّا عريقًا مِن جهة، وذو مشقَّة عليَّة بالغة مِن جهة أخرى، فإيمانُهم ليس لسانيًّا فقط، وإنَّما هو يقينيٌّ عمليٌّ.

من أدرك الفلاحَ؛ فقد استكمل أبواب النفع والخير

وإشارةً إلى أنَّهم سلكوا هذا الطريق، وهم يُحارَبون مِن جهة عدوِّهم في الدين، وهم يُجاهدون أنفسهم، والشياطين، وغيرَ ذلك؛ فقد فازوا بالإيمان وجزائه، ونجوا مِن الكفر وشرِّه وعقابه.

وبمعونة ذلك كلِّه نفهم أن (أل) في قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: معناها الكمال، فهُم أهل كمال في فلاحهم، أي: في سمعهم وطاعتهم، وفلاحهم هو الفلاح الكامل، الذي لا يُعتدُّ بفلاحٍ غيره مبالغةً.

دلالةُ حذفِ المتعلِّق:

حُذِفَ متعلِّق قوله: ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ إيجازًا لكونه معلومًا بدلالة الحال من سياق الكلام، ولتوجيه النُّفوس لإثبات صفة الفلاح للمؤمنين دون الانشغال بالمتعلَّق، ولتعميم الحكم عليهم بالفلاح؛ تعظيمًا لشأنهم، ورفعة قدرهم، وفي الحذف أيضًا تمكينٌ لمعنى كمالهم في سبيل الفلاح، وتمكينٌ لكمال الفلاح نفسِه.

من صور النَّعيم أن تجد الفلاح رفيقًا لك في جميع حالاتك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 275.

بلاغةُ التَّضادِ بين هذه الآية وآية المنافقين السّابقة:

لايستوي المنافقُ والمؤمن كما لا يستوي الخبيثُ والطيب

ذكر الله تعالى قول المنافقين فيما سبق حين دعُوَتِهم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، وحاصلُهُ الإعراضُ والنُّفور؛ لاعتراضهم على حكمه وعدم الإذعان لهذا الحكم، وهذا دون قولِ المؤمنين الذين يعلنون سمعهم وطاعتهم لهذا الحكم، ففرقٌ بين العاصي والمطيع؛ فالأوَّلون المنافقون رفضوا الإذعان والخضوع، وهؤلاء قبلوا حكم الله تعالى وأعلنوا السَّمع والطّاعة لهذا الحكم، والتقابلُ بينهم يحرِّك المتلقّين لفقه حال كل فريق في نور حال الفريق الآخر، فيتمكَّن المعنى في النفس، ويظهر لها على جهة الكمال، فهو إحسان إلى المعنى وإلى المُتلقِّين جميعًا.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والثلاثون،
سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 37 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 37 : المجلد السابع والثلاثون، سورة النور من الآية 39 إلى سورة الفُرقَان الآية 42.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-79-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8644972 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»